كتابك

٢٧

د. علـى حسنى الخربوطلى

الحضارة الإسلامية

دار المعارف

هـذا الكتاب

كان مولد الحضارة الإسلامية فى مكة حين نزل الوحى فى غار حراء يعطى محمداً لواء الحضارة فى العالم بأسره . .

والمؤلف فى هذا العرض يتناول ميلاد هذه الحضارة وانطلاقها نحو العالم . . وموقفها من الحضارات العالمية قديمها وحديثها . . وموقفها فى مواجهة أعدائها حتى أصبح لها الوجود الحقيقى بين الحضارات المختلفة .

٤٥٠١٦٧/ ١

١٠ ج

كتابك (٢٧)

رئيس التحرير: أنيس منصور

د. على حسنى الخربوطلى

الحضارة الإسلامية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

تمر الأمة الإسلامية الآن فى لحظات انتقال تاريخىّ حاسم ، فقد تركت وراءها رواسب الحكم العثمانى ، ومؤثرات العصور الوسطى ، وشوائب الاستعمار الأوربى ، وبدأت فى القرن العشرين عصراً زاهراً ، ويقظة حضارية ، تعمل من خلالها على وصل الماضى التليد بالحاضر المجيد ، وتتطلع إلى المستقبل السعيد ، مستفيدة من القيم الإسلامية ، ومن نظم الإسلام وحضارته. إن الكفاح الإسلامى المشترك ، ووحدة مواجهة الأخطار الإلحادية والمادية ، والمصلحة الإسلامية الواحدة فى التكتل ضد هذه الأخطار ، تحتم كلها اتحاداً إسلاميًّا ، على أسس من الحضارة الإسلامية العريقة الزاهرة

والأمة الإسلامية ، وهى تتطلع الآن إلى المستقبل المشرق الباسم ، الموحد المتحرر ، المتجدد المتطور ، عليها أن تسلط أضواء كاشفة على جوانب حضارتها الإسلامية ، وأن تستفيد من التجارب الإنسانية الكثيرة التى مرّت بها عبر العصور التاريخية ، حتى تدرك أن حضارتها تراث أحقاب ، ونتاج أجيال ، وواقع حياة ، وحتى تعرف الأمة

الإسلامية دورها السالف البارز فى الموكب الحضارى العالمى ...

وهذا الكتاب يلقى أضواء ساطعة على الحضارة الإسلامية ، والحديث عن هذه الحضارة الشاملة العريقة شائق وممتع ومفيد ، ولكنه طويل ، ويحتاج إلى مجلدات كثيرة ، توضح جوانب هذه الحضارة الزاهرة وأمجادها وقد رأينا – فى كتابنا الصغير – أن نقدم للقراء أقباساً من أنوار حضارة الإسلام ، فدرسنا مولد هذه الحضارة ، وفجر تاريخها ، وانتصاراتها على الحركات المضادة التى واجهتها فى أول طريقها العالمى الإنسانى ، ثم درسنا مقومات الحضارة الإسلامية وأسسها وخصائصها ، وشهدنا انطلاقاتها إلى العالم ، وأثرها فى المجتمعات وفى الحضارات الإنسانية ، وموقفها من الحضارات الأخرى . ثم رأينا الحضارة الإسلامية تصبح أساساً للمجتمع الإسلامى الكبير الذى قام بعد الفتوح العربية الواسعة ، فى آسيا وإفريقية وأوربا . ودرسنا كفاح الحضارة الإسلامية فى مواجهة بعض أعدائها ، كتيارات الشعوبية والزندقة ، والخطرين : المغولى والصليبى . وانتهينا إلى دراسة دور الحضارة الإسلامية فى العالم المعاصر ، واتجاهاتها لتحقيق السلام العالمى والرخاء البشرى .

وأرجو أن يجد كل مسلم ، وكل عربى ، وكل شرقى ، الفائدة العلمية المرجوة ، فى هذا الكُتيّب ، إنه عز وجل ولىّ كل توفيق ، .

المؤلف

١ - الفجر

كان مولد الحضارة الإسلامية فى مكة ، بعد أربعين عاماً من حملة الفيل التى كان العرب يؤرخون بها أحداثهم ، حين نزل الوحى على محمد عليه الصلاة والسلام فى غار حراء يبشره بأنه رسول الله إلى العالمين ، وأنه حامل لواء الحضارة الإسلامية فى العالم أجمع .

اهتم المسلمون بتفسير كلمة (إسلام) ، فقال بعضهم إنه (الانقياد) ، أى انقياد المؤمنين للخالق العظيم . وقال بعض إن معناه (المسالمة) ، إذ جاء فى القرآن الكريم : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، وهكذا أصبح العصر السابق لظهور الإسلام (جاهلية) ، ثم بدأ عهد جديد ، هو عهد (الإسلام) دين (السلام) . ثم يصلون إلى كلمة (أسلم) المشتق من السلام ، بمعنى الانقياد ، حيث قال الله تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) ، وقوله : (فقل أسلمت وجهى لله) . وأصبح المسلم هو كل من أسلم وجهه لله ورضى بطاعته .

والدين أساس الحضارة ، والتاريخ يثبت أن المعرفة الإنسانية عبر العصور التاريخية ، تقدمت وتطورت ونضجت ، بتأثير الدين ، فالدين

خير مرشد للإنسان إلى طريق الحضارة ، والنهضة ، والتطور .

والإسلام عقيدة تخاطب الروح والعقل ، وتدعو إلى تهذيبهما وتنقيتهما من شوائب الجاهلية والرجعية ، والعقيدة الإسلامية تجمع بين الدين والدنيا ، وتهتم بالشئون الروحية والمادية ، وتحقق التوازن بينهما ، مما يميز الإسلام عن سائر الأديان ، والإيمان يبدأ بالروح والعقل ، ثم يضع المؤمن التعاليم الإسلامية موضع التنفيذ الإيجابى . والإسلام يحقق للمسلم احتياجاته النفسية والمادية ، والهدوء النفسى خير وسيلة ليعيش المسلم حياة عملية ناجحة ، وليمارس أعماله المادية ، وليمضى فى طريق الحضارة الزاهرة .

لم تنجح اللغة العربية قبل الإسلام فى توحيد العرب ، وخلق مجتمع عربى متماسك ، ووحدة سياسية تجمع الجماعات العربية المتفرقة المتنابذة ، مما يوفر وسائل قيام حضارة ، تنعم بالاستقرار والسلام ، وتأخذ طابعها المميز . وكانت طبيعة بلاد العرب ، بما فيها من صحارى قاحلة ، وجبال وعرة ، وهضاب عالية ، وأودية عميقة ، تدعو إلى تباعد العرب وتمزقهم ، وتؤدى إلى صعوبة الاتصال والامتزاج الحضارى ، مما أدى إلى اختلاف اللهجات ، حتى أصبحت بعض هذه اللهجات وكأنها لغات بعيدة عن أصلها العربى .

وانشغل العرب بمشاكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتناسوا لغتهم ، وساعدت الأمية على إهمال اللغة العربية ، بل يرى

بعض أن الأغراض الاقتصادية والدينية طغت على الأغراض الأدبية فى سوق عكاظ .

أما وقد أصبحت اللغة العربية وحدها لا تستطيع أن توحد العرب وتجمعهم فى حضارة قومية عربية متحدة ، وتحت لواء سياسى واجتماعى واحد ، فكان لابد من أساس آخر تقوم عليه الوحدة العربية ، والدولة السياسية الموحدة ، والمجتمع العربى المتماسك ، ألا وهو الدين ، الذى يمنح مثلاً أعلى فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر ، ويقضى على الرذائل الاجتماعية والتقاليد الجاهلية ، ويحقق وحدة دينية تكون طريقاً لوحدة حضارية .

وكانت الحياة الدينية فى بلاد العرب تتصف بالفوضى لتعدد الأديان والمذاهب . فكانت هناك الوثنية التى قامت أحياناً على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والرعد والبرق وغيرها . ونظر كثير من العرب إلى الأصنام والأوثان على أنها رمز للقوة الطبيعية . وكان البدو يمارسون وثنيتهم كتقاليد اجتماعية متوارثة من الأجيال السالفة دون فلسفتها أو معرفة أصولها ومغزاها . وكانوا بصفه عامة أميل إلى التحرر من كل دين ، والاتجاه إلى الانطلاق الاجتماعى والخلقى الذى يؤدى إلى فوضى خلقية ، وقد وصف القرآن الكريم الأعراب بأنهم أشدُّ كفراً ونفاقاً .

وقبيل الإسلام ، فقدت الوثنية معناها الأول ، وتغيّر جوهرها ، وأصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام . وانتشرت المجوسية على

سواحل الخليج الفارسى . وظهرت فى الجزيرة العربية ثلاث حركات للإصلاح ، هى اليهودية والمسيحية والحنيفية ؛ حاولت أن تجمع العرب حول دين واحد ، وتقضى على الاختلافات الدينية ، ولكن هذه الحركات أخفقت كلها ، وظلت بلاد العرب غارقة فى فوضى دينية ، وتأخر حضارى ، لم ينقذها منهما سوى ظهور الإسلام .

وكانت الدعوة الإسلامية حركة إصلاحية أعظم تنقذ البشرية جمعاء من الاستعباد والفقر والرذيلة والتأخر الحضارى ، وثورة على النظم الرجعية القديمة التى تتنافى هى والإنسانية والحضارة . وكل ثورة إصلاحية لابد أن تلقى حركات مضادة ، تبعاً لسنة الحياة ، وتعبيراً عن الصراع بين القديم البالى ، والجديد الناهض ، وبين أنوار الحضارة وظلام الجاهلية الرجعية ، ولكن البقاء دائماً للأصلح والأنفع .

ومنذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام فى مكة ، لقيت الحضارة الإسلامية مقاومة وحروباً مضادة ، اتخذت أشكالاً وصوراً متعددة ، شنتها عليها قريش ، فقد لاحق القرشيون المسلمين بالاضطهاد والإيذاء ، فلم يحقق المسلمون آمالهم فى الحياة الاجتماعية والسياسية الموحدة ، فى ظلال الحضارة الإسلامية التى أتى بها القرآن الكريم الذى توالى نزوله فى مكة طوال ثلاث عشرة سنة .

وكانت قريش فى هذا العداء إنما تعادى الإسلام كعقيدة لها نظمها وحضارتها ومثلها العليا ، وكانت فى ذلك العداء تدافع عن لونها

الحضارى ، وعن كيانها السياسى والدينى والاقتصادى والاجتماعى ، فأصبحت القضية عند قريش قضية مصير . وأصبح الصراع – فى الحقيقة – صراعاً بين الحضارة الإسلامية ، وحضارة قريش .

أما من الناحية السياسية ، فقد أصبحت قريش قبيل ظهور الإسلام ، دولة جمهورية صغيرة ، لها السيادة السياسية على مكة ، ولها زعاماتها ، يتوارثها أبناؤها ، ولها مناصبها الرياسية المتخصصة التى تشبه وزارات اليوم . ولقريش برلمانها المشهور (دار الندوة) ، وعقدت قريش معاهدات اقتصادية مع الدول المعاصرة لها ، فكانت هذه المعاهدات اعترافاً رسميًّا صريحاً بشخصية قريش الدولية .

أما من الناحية الدينية ، فقد نصبت قريش نفسها حامية وراعية للوثنية ، وأصبح الحج إلى الأصنام المنصوبة عند الكعبة ، وارتياد أسواق مكة ، يحقق إيرادات مالية سنوية ضخمة . كما اكتسبت قريش من إشرافها على الكعبة نفوذاً روحيًّا كبيراً . هذا فى حين يدعو الإسلام إلى التوحيد .

وإذا انتقلنا إلى حضارة قريش الاقتصادية ، نجد قريشاً تسيطر تماماً على النشاط التجارى فى الحجاز ، وتقوم برحلات الشتاء إلى اليمن ، ورحلات الصيف إلى الشام ، كما تحكمت قريش فى أسعار السلع العالمية ، ومارست الاحتكار والاستغلال فى ميادين الاقتصاد . على حين ينهى الإسلام تماماً عن كل احتكار واستغلال وجشع وطمع .

أما من ناحية حضارة قريش الاجتماعية ، فقد عاشت قريش حياة مادية بحتة ، فقد جمعت قريش الأموال الضخمة العائدة من التجارة والحج ، وانصرفت إلى حياة النعيم والرفاهية ، وعاش القرشيون فى لهو ومجون ، فى حين يتضور أبناء القبائل العربية الضاربة فى الصحراء جوعاً . وبذلك أصبحت قريش بعيدة تماماً عن الجوانب الروحية وعن المشاعر الإنسانية . واعتزت قريش بثرائها الواسع ، وبقوتها المادية ، فجعلت من نفسها قبيلة أرستقراطية تصنع نفسها فوق سائر القبائل . هذا فى حين أن الإسلام يحطِّم الحواجز والفوارق القبلية ، ويدعو إلى الأخوة والمساواة والتعاون والتعارف ، ويجعل التقوى والمواطنة الصالحة أساساً للمفاضلة بين البشر..

أصرت قريش على الدفاع عن حضارتها ، وقاومت الإسلام وما أتى به من حضارة . ثم كانت الهجرة ، وهى انتقال بالحضارة الإسلامية إلى أرض أكثر خصباً ، مما يحقق لها البقاء والنماء ، والانتشار والانتصار . وأهالى المدينة من الحضر ، سكان المدن ، وتؤهلهم عقليتهم لتقبل عقيدة التوحيد ، والحضارة الإسلامية ، فهم يعيشون فى طور الزراعة ، ويميل المجتمع الزراعى عادة إلى المحبة والتعاون والسلام .

وفى المدينة ، وبعد الهجرة ، بدأ تبلور الحضارة الإسلامية ، واتخاذها طابعها المميز المتكامل ، فقد توالى نزول القرآن الكريم ، حاملاً شرائع ومثلاً أعلى ، تهدى المسلمين إلى حضارة زاهرة– ونظماً راقية فى

السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر.

وبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام إرساء قواعد الحضارة الإسلامية، وتطبيقها عمليًا، بتنظيم المجتمع الجديد، الذى سيحمل لواء الحضارة الإسلامية، فى داخل الجزيرة العربية وخارجها، فبدأ بعقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم كانت الخطوة الثانية، وهى تحديد العلاقات، والحقوق والواجبات، بين المسلمين ويهود المدينة، وتحررت وثيقة تاريخية، كانت فى الحقيقة أول إعلان رسمى لحقوق الإنسان. فهى تقرر الحرية التامة، فى الاعتقاد والرأى والعمل، وهى ترسى قواعد السلام، وقد أراد الرسول الكريم بهذه الوثيقة أن تكون المدينة وطناً للمسلمين واليهود، ولا يؤثر اختلاف الدين فى الوحدة الوطنية، بل يمكن التعايش الدينى.

وهكذا تمت خطوتا تنظيم المجتمع الجديد فى المدينة بعد الهجرة، وأصبح الرسول عليه الصلاة والسلام على رأس جماعة كبيرة العدد، آخذة فى النمو، تتبع أسساً حضارية موحدة، وأصبحت الرابطة الدينية- العاطفية والحضارية- تقوم مقام صلات الرحم والدم، وأصبح الإسلام نظاماً سياسيًّا إلى جانب كونه نظاماً دينيًّا وحضاريًّا.

كان من أبرز أهداف الإسلام، محو الحضارة البدوية الجاهلية، وإقامةُ حضارة اجتماعية جديدة راقية، تقوم على الحرية والإخاء والمساواة، وتسمو بالإنسانية، وتقضى على الجهل والفاقة، وتدعم روح

الجماعة ، وتقضى على الروح الانفصالية ، والإقليمية والفردية ، وتحقق الزمالة الإنسانية ، والمشاعر العالمية .

وتهتم الحضارة الإسلامية بالفرد ، والأسرة ، والمجتمع ، وتحقق التضامن والتكامل فى المجتمع ، وتنظم الحقوق والواجبات . كما تعتنى أيضاً بالمرأة ، وترفع مكانتها وترد إليها حقوقها ، وتجعلها عضواً نافعاً فى المجتمع ، كما تهتم الحضارة الإسلامية بكثير من القضايا الاجتماعية التى أهملتها المجتمعات القديمة ، العربية والفارسية والرومانية .

أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ، حامل لواء الحضارة الإسلامية ، والمصلح الاجتماعى الأول ، تنظيم المجتمع وتحديد العلاقات والحقوق والواجبات ، فكان يستمد من الشريعة الإسلامية روح قوانينه وتشريعاته ، ولما كان تنفيذ القوانين ورعايتها يحتاج إلى حكومة مسئولة ، فقد اهتم الرسول الكريم بإنشاء حكومة إسلامية مستنيرة ، ترعى قواعد الحضارة الإسلامية ، وعوّد الأهالى الحياة فى رعاية هذه الحكومة المركزية ، وأصبح الجميع شركاء فى المسئولية وفى رعاية القوانين والأحكام العامة ، وزالت الفوارق الاجتماعية القديمة ، وتضاءلت روح العصبية الجاهلية ، ونزعات الرجعية .

أصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة ، وقد مهدت هذه الرابطة الدينية إلى وحدة حضارية ، وقامت الدولة العربية الإسلامية ، على أسس الحضارة الإسلامية . وانتقل

الإسلام بالعرب من حضارة القبيلة ، أو حضارة الإقليم ، أو حضارة المدينة المستقلة ، إلى حضارة الدولة الموحدة . وأدت وحدة الحضارة إلى وحدة قومية ، وسياسية ، واجتماعية .

وأقبل العرب على الحضارة الإسلامية ، على أساس الاختيار الحر ، فلا إجبار أو إرغام ، وأصبحت الرابطة الحضارية أقوى من الرابطة القبلية ، أو الرابطة الإقليمية ، وأنعشت الحضارة الإسلامية الروح القومية والشعور الوطنى ، مما افتقده العرب قبل ظهور الإسلام . وأصبح الرسول عليه الصلاة والسلام رمزاً لمذهب حياة متحضرة جديدة ، متقدمة ناهضة ، تحقق السعادة فى الدنيا والآخرة .

اصطدمت الحضارة الإسلامية فى المدينة ، والحضارة اليهودية ، البالية المحرَّفة ، وقد أبدى اليهود عداءهم للإسلام وحضارته ، منذ الهجرة ، وزاد العداء بعد ازدياد عدد المسلمين ، وتبلور الحضارة الإسلامية . والحضارة اليهودية حضارة أرستقراطية دينية ، تدعو إلى التعصب العنصرى ، فقد زعموا أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه . والحضارة اليهودية أيضاً تتصف بالمادية الواضحة ، فقد امتلك يهود المدينة ضيعات واسعة ، اتبعوا فى زراعتها النظم الإقطاعية ، وعملوا قبل الإسلام على تسخير عرب المدينة فى زراعتها ، حتى أصبحوا رقيقاً للأرض ، كما احتكر اليهود الصناعة والتجارة فى المدينة ، وأقاموا مصانع الأسلحة ، يبيعونها للقبائل المتصارعة ، تشجيعاً لهم على الاستمرار فى

حروبهم القبلية الدامية. ودافع المسلمون عن حضارتهم، ووقفوا أمام روح اليهود الفردية والانفصالية، التى هددت الوحدة الحضارية، والسياسية والاجتماعية، التى قامت فى المدينة.

أكد الإسلام، منذ ظهوره، وفى حياة الرسول، أنه دين عالمى إنسانى، وصالح لكل زمان ومكان. وهو صالح لكل جنس، ولكل عقل، ولكل درجة من درجات الحضارة. والإسلام حضارة عامة شاملة، ترقى بحياة الإنسان الدنيوية، وتحقق تقدم البشرية، وتعالج المشاكل السياسية والاجتماعية، وتدعو إلى الإخاء والاتحاد والحرية والمساواة.

وكل ثورة حضارية وإصلاحية – كما ذكرنا – لابد أن تواجه حركات مضادة، وفى أواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، بدت بوادر حركة مضادة جديدة، هى حركة الرِّدَّة، ما لبثت أن اتسع نطاقها، وازداد خطرها بعد وفاة الرسول، حيث انتشرت فى أرجاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية، حركات كثيرة، اختلفت فى بواعث قيامها، وفى صورها، وزعاماتها، ولكنها كلها إتفقت فى أنها قد أصبحت خطراً يهدد الحضارة الإسلامية، والوحدة الدينية والإجتماعية والسياسية.

وكانت حركات الرِّدَّة (نكسة) أصابت انتفاضة الإسلام، فى حين كان المسلمون يقدمون على (إنطلاقة) جديدة تخرج بالإسلام وحضارته إلى آفاق عالمية، إذ كانت حملة أسامة بن زيد هى طليعة حملات

الفتوح الإسلامية ، من أجل نشر الإسلام وحضارته الزاهره .

لقد كانت حركات الرِّدَّة أخطر الحركات المضادة التى واجهتها الحضارة الإسلامية ، فهى تهدِّد بعودة الجزيرة العربية إلى الحضارة الجاهلية الرجعية القديمة ، وما سادها من حروب قبلية دامية ، وفوضى دينية ، وتأخر حضارى .

وحروب الرِّدَّة – فى الحقيقة – حروب بين مسلمين مؤمنين ، تمسكوا بدينهم الإسلامى ، وبما أفاءه الإسلام عليهم من حضارة تقدمية ناهضة ، وبين مرتدين نبذوا تعاليم الإسلام التقدمية ، ليعودوا إلى حضارتهم الجاهلية البالية ، فضلاً عن خروجهم عن الولاء السياسى للدولة الإسلامية ، وانشقاقهم عن المجتمع الإسلامى الموحد .

إن الرواسب النفسية التى خلقتها الحضارة الجاهلية الفاسدة فى نفوس الأفراد ، لم تتوقف عن بث سمومها فى المجتمع ، ولم يكن من الممكن القضاء عليها قضاء مبرماً فى زمن قصير ، لأنها قد ترسبت فى اللاشعور .

وكان لابدّ من مرور سنوات عدة حتى تتحول جوانب الحضارة الإسلامية إلى خلق ثابت مستقر ، وسلوك اجتماعى عملى ، لا تؤثر فيه الانتفاضات الفجائية الانقلابية ، والنزوات المعارضة الرجعية . وقد ظهرت رواسب الماضى الجاهلى على السطح ، من عصبية قبلية وعنصرية ، وروح فردية ، مما هدد الحضارة الإسلامية .

وحددت درجة البداوة والحضارة فى موقف كل من البدو والحضر من

حركات الرِّدَّة ، فقد كان الحضر الذين تشبعوا بالحضارة الإسلامية وطبقوها عمليًّا ، أكثر ابتعاداً عن هذا الارتداد ، وقد تمسكت القبائل الحضرية ، مثل قريش وثقيف ، بالإسلام وحضارته ، برغم مقاومتها السابقة للإسلام عند ظهوره . وكان البدو أسرع العرب إلى التمرد على الحكومة المركزية ، والخروج على أركان الحضارة الإسلامية بما تضمه من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية ، وقيم روحية وخلقية . وأصبحت حركات الردّة ، حركات رجعية تدعو إلى الإقليمية والانفصالية ، وتحطم الوحدة الحضارية فى العالم الإسلامى .

وكان انتصار أبى بكر والمسلمين على حركات الرِّدَّة ، انتصاراً للثورة الإسلامية الحضارية ، ولم يؤد هذا الانتصار إلى عودة الوحدة الدينية والسياسية والاجتماعية إلى الجزيرة العربية فحسب ، بل كان لهذا الانتصار أثره فى تاريخ العالم ، وفى الحضارة البشرية ، فقد بدأت الفتوح الإسلامية ، التى أدت إلى انطلاق الحضارة الإسلامية ، إلى آفاق أوسع ، وأصبح العرب حملة لواء الإسلام وحضارته الراقية ، فى العالم أجمع .

٢ – انطلاقة نحو العالم

نصّ القرآن الكريم على عالمية الدين الإسلامى ، وحضارته ، وعلى أن الله عزَّ وجل قد بعث رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وفى الحديث النبوى الشريف ما يؤكد عالمية الإسلام أيضاً .

والإسلام هو الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان ، وقد عمل الرسول عليه الصلاة والسلام على نشر الإسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، فالإسلام عقيدة سامية تصلح حضارته لجميع البشر ، وقد تكفل القرآن الكريم بتبيان كل شىء ، فقد قال عز وجل : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىءٍ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ، (سورة النحل آية ٨٩) .

حارب الإسلام كل لون من ألوان العصبية ، التى تفضل جنساً على جنس ، أو أمة على أمة ، لأن هذه العصبية تدعو إلى الفرقة والانقسام ، وإلى الصراع الاجتماعى . والعصبية تفرّق البشر ، وقد جمعهم أصل واحد . والإسلام يدعو الناس إلى الحياة فى مجتمع إنسانى واحد ، يكفل له الأمن والحرية والسلام ، فالإسلام كما يدعو إلى أخوة إسلامية ، يدعو فى الوقت نفسه إلى أخوة إنسانية عامة واسعة ، لا فرق فيها بين العناصر أو الأمم أو العقائد . وهكذا لا يعترف الإسلام بتلك الحدود الصناعية ، أو

الحدود العنصرية ، أو الفواصل الجغرافية ، بل يتجاوز الإسلام ، عقيدة وحضارة كل هذه الحدود ، ويدعو إلى حضارة إنسانية عالمية .

لاشك أن هناك فوارق فى الألوان واللغات ونظم الحياة ، ولكنها فوارق خلقتها البيئة الطبيعية والظروف الجغرافية ، نتيجة انتشار البشر فى أرجاء الأرض ، ولكن هؤلاء البشر جميعاً ، برغم ما بينهم من فوارق ، ينتمون جميعاً إلى سلالة واحدة ، وقد ظل البشر فترة أمة واحدة . والإسلام يعترف بهذه الفوارق الفطرية ويرى أنها قد تؤدى إلى تبادل المنفعة والتعاون . ولكن الإسلام فى الوقت نفسه ، يرفض أن يترتب على هذه الفوارق أى شكل من أشكال التعصب ، ولذا يجعل الإسلام أكرم البشر هم أكثرهم تقوى ، بحيث يصبحون مواطنين صالحين ، فى وطنهم ، وفى الأسرة البشرية كلها .

نجح الرسول عليه الصلاة والسلام فى توحيد العرب فجعلهم أمة واحدة ، لأول مرة فى تاريخهم ، ثم ساوى بين العرب وغيرهم من الأجناس التى اعتنقت الإسلام . ونادى الرسول بوحدة الحضارة ، والمشاعر الإنسانية ، ودعا إلى محو جميع الحواجز والفروق الطائفية والعنصرية .

وكانت الدولة العربية الإنسانية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام تضمّ أفراداً من أجناسٍ مختلفة ، من الروم والفرس والأحباش ، وهم– وإن كانوا قليلى العدد بالنسبة للأغلبية العربية – كانوا يمثلون (وحدة

حضارية) ، فضلاً عن تمثيلهم لدعوة الإسلام العالمية .

وبدأت انطلاقات الحضارة الإسلامية ، بالفتوح العربية ، فى عهد أبى بكر وعمر بن الخطاب ، أولاً ، ثم فى العصر الأموى . وكانت هذه الفتوح بدافع نشر الإسلام وحضارته ، لتحرير الشعوب من النظم الحضارية القديمة البالية ، ولإنهاء الصراع الحضارى بين الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية .

وكانت الفتوح العربية من موضوعات التاريخ الإسلامى الرئيسة التى نفث المستشرقون المجحفون فى دراساتهم لها سمومهم ، فهذه الفتوح قد امتدت واتسعت ، فى قارتى آسيا وأفريقية ، حيث فتح العرب جميع أراضى الدولة الفارسية ، الممتدة من غرب العراق إلى وسط آسيا شرقاً ، وفتحوا الشام ومصر ، ووصلوا بفتوحهم فى شمالى إفريقية إلى المحيط الأطلسى ، ثم إلى القارة الأوربية ، حيث فتح العرب شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس) ، وجنوبى فرنسا ، وجنوبى إيطاليا ، وجميع جزر البحر المتوسط ، وكانت هذه القارات الثلاث تمثل العالم الوسيط ، حيث لم تكتشف بعد القارتان الأمريكيتان وقارة أستراليا . واعتبر المتعصبون من الأوربيين هذه الفتوح العربية غزواً إسلاميًّا يهدد العالم المسيحى ، كما اعتبروها أيضاً غزواً حضاريًّا ، إذ تغزو الحضارة الإسلامية الحضارات الأوربية ، وعبّر بعض المستشرقين عن هذا التعصب ، وتلك الأحقاد .

وتنوّعت مزاعم المستشرقين ، فمنهم من يزعم أن العرب أرادوا إنشاء إمبراطورية إسلامية ، ومنهم من يصف الفتوح بأنها « غارة بدوية مؤقتة » ، وكثير منهم يزعم أن العوامل الاقتصادية هى الأسباب المباشرة للفتوح العربية . فيذكر المستشرق (توماس أرنولد) – مثلاً – فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ، أن هؤلاء الفاتحين العرب لم يكونوا مدفوعين بالحماسة الدينية ، بل بالطمع فى النفع الدنيوى والحصول على غنائم كثيرة . كما يعتبر (أرنولد) توسع الجنس العربى هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً .

ومن اليسير الرد على مزاعم هؤلاء المستشرقين ، فلم تكن الحكومة الإسلامية تبعث بهذه الجيوش العربية الضخمة لتواجه جيوش أعظم دولتين فى العالم ، الفارسية والرومانية ، من أجل تحقيق مكاسب سريعة ، أو غنائم مؤقتة ، بل كانت الفتوح سياسة واضحة ، محدَّدة مقررة ، من أجل تحقيق عالمية الدين الإسلامى ، ونشر حضارته التقدمية الزاهرة ، وهى سياسة وضع أسسها الرسول الكريم ، واستمر فى تنفيذها خلفاؤه من بعد .

ومما يؤكد الاتجاهات الحضارية فى الفتوح العربية ، ومما ينفى مزاعم المستشرقين ، أن البدو لم يكونوا يمثلون غالبية الجند العرب ، بل كان عماد الجيوش العربية على القبائل الحضرية ، مثل قريش وثقيف ،

واشتركت أيضاً فى الـفتوح القبائل اليمنية وكانت على درجة كبيرة من الرقى الحضارى .

لقد كان الفتح الإسلامى للأراضى الفارسية والرومانية ، تحريراً لشعوبها مما كانوا يعانون منه من مظالم واستبداد وإرهاب ، ونهضة بأحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكانت سيادة الحضارة الإسلامية فى هذه الأقاليم المفتوحة دافعاً إلى النهضة والتقدم ، وكان اهتمام الحكومات الإسلامية القائمة فى هذه الأقاليم بالإصلاحات العامة ، وبتحقيق عدالة الضرائب ، من عوامل نهضة اقتصادية شهدتها هذه الأقاليم ، طوال قرون كثيرة ، أما مسألة الغنائم فهى مسألة مؤقتة تنتهى بانتهاء الحروب .

والثابت تاريخيًّا أن العرب الفاتحين بعد إستقرارهم فى الأقاليم المفتوحة انصرفوا إلى السياسة والإدارة ، وتركوا النشاط الاقتصادى للأهالى ، ولم يتدخل العرب فى هذا النشاط ، فاستمرت الصناعة والتجارة ، والحرف والمهن ، فى يد العناصر غير العربية ، بل أدى اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وتحطيم الحواجز السياسية والحضارية التى كانت تفصل بين الأراضى الفارسية فى العراق وفارس ، والأراضى الرومانية فى الشام ومصر ، إلى نشاط اقتصادى واسع النطاق ، وإلى وحدة نظم حضارية .

وجد العرب فى الشام قوميات مختلفة متصارعة ، ذات حضارات

متباينة ، فينيقية ، وكلدانية ، وعبرية ، ويونانية ، ورومانية . ولم يهتم الرومان بتحقيق التوازن بين هذه القوميات والحضارات ، مما أدى إلى صدام قومى وصراع اجتماعى . وأعلن الإسلام أنه يساوى بين القوميات والأجناس ، وكان الطريق ممهداً أمام الإسلام ليصبح الرباط الدينى والحضارى الذى يربط بين هذه القوميات والمجتمعات المتنافرة – كما أصبحت الحضارة الإسلامية هى أساس الوحدة الاجتماعية .

وفى مصر ، لم يلتق العرب الفاتحون فى ميادين القتال إلا والمستعمرون الرومان ، فقد رحب أقباط مصر بالفتح العربى ، باعتراف المستشرقين . إذعـانى الأقباط من الاضطهاد المذهبى نتيجة اختلاف مذهبهم عن مذهب الرومان . كما كان الأقباط المصريون يعانون من الضرائب الفادحة الظالمة . وقدّم المصريون للجيوش العربية حاجاتها من الإمدادات والتموين ، ومهدوا لهم الطرق ، حتى يتحرروا من الاستعمار الرومانى .

وفى العراق وفارس ، لقى الفاتحون العرب مقاومة شديدة من جيوش كسرى ، فقد كان هذا الكسرى بمثابة إله يدافع عن سطوته واستبداده ، ويخشى الإسلام على نفوذه الضخم ، ويقف من ورائه رجال الدين المجوسى ، الذين أصبحوا طبقة أرستقراطية رأسمالية ، سيطرت على السياسة والاقتصاد ، ويؤيدهم جميعاً طبقة النبلاء الفرس الذين أرادوا الاحتفاظ بنفوذهم وثرائهم الواسع .

أما جماهير الشعب الفارسى ، فقد كانت تعانى من سطوة كسرى

وأعوانه . وقد ملَّت الحروب المستمرة مع الدولة الرومانية ، حيث اجتاح الرومان الأراضى الفارسية أحياناً وأنزلوا بها الخراب والتدمير . كما كانت العقائد المجوسية قد أصابها الوهن والانحلال ، وأصبحت مجموعة من الخرافات ، وقد كانت الأفكار المجوسية المزدكية تدعو إلى الإباحية والفوضى الاجتماعية ، إذ تجعل المال والنساء مشاعاً بين جميع الناس على قدم المساواة . وكانت غالبية الفرس زاهدة فى الحضارة الفارسية ، وفى المظاهر القومية ، إذ قد ضعفت معانى الاستقلال فى نفوسهم . كما وجد الفرس فى الفتح العربى خلاصاً من الخدمة العسكرية ، وأملاً فى تمتعهم بالحرية الدينية ، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التى تمتع بها العرب الفاتحون . وأدّت هذه العوامل كلها إلى فتح الأبواب فى الأراضى الفارسية للحضارة الإسلامية .

وبرغم المزاعم الباطلة التى رأيناها حول دوافع الفتوح العربية التى ساقها المستشرقون فإنهم اعترفوا اعترافات صريحة بانتشار الإسلام انتشارا سريعاً ، نتيجة الإقبال من غالبية أهالى الأقطار المفتوحة على اعتناق الإسلام ، والتحضّر بحضارته الزاهرة .

يعلِّل المستشرق (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) هذا الانتشار للإسلام وحضارته ، بعاملين : أولها معرفة كثير من الأهالى لعقيدة التوحيد ، والعامل الآخر هو — يسر الإسلام وسهولته ، وهذا اليسر هو سر قوته ، فهو يخلو مما نراه فى الأديان الأخرى من المتناقضات والغوامض .

أما المستشرق (ستانلى لينبول) فهو فى كتابه (دراسات فى مسجد) يتساءل عن سبب انتشار الإسلام وحضارته ، وهل هو القانون الأخلاقى الذى تحويه العقيدة؟ ويجيب (لينبول) على تساؤله ، فيقول : إن ما حواه الإسلام من مبادئ وتعاليم سامية ، كافية لتعلق قلوب الملايين بالإسلام وحضارته .

ويعلل المستشرق (دوزى) فى كتابه (نظرات فى تاريخ الإسلام) إقبال الفرس على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه فى دياناتهم السابقة . أما المستشرق (توماس أرنولد) فيرجع فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) سبب انتشار الإسلام إلى عاملين : أولهما - نجاح العرب الواسع النطاق الذى زعزع العقائد الأخرى ، فرأى الأهالى أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الإلهى . أما العامل الآخر ، فهو ما كان يحتويه الإسلام من حضارة ناهضة ، ومثل أعلى ترمى إلى أخوة المؤمنين كافة فى الإسلام .

ويشير المستشرق (فون كريمر) فى كتابه (الحضارة الإسلامية) إلى أن الإسلام أصبح هو الرابطة بين العناصر المختلفة المتنافرة التى كانت تسكن الأقطار المفتوحة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية إلى جانب كونه عقيدة دينية . وقد قام موسم الحج بدور كبير فى مزج هذه العناصر ، فقد رحل المسلمون على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم إلى مكة ، فساعد ذلك على امتزاج الثقافات والحضارات .

٣ - موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات العالمية

رحبت معظم العناصر بالفتح العربى ، إذ وجدوا فى هذا الفتح خلاصاً لهم وتحريراً من مظالم ومفاسد الحكمين : الفارسى ، والرومانى ولاشك أن هذا الترحيب كان عاملاً مساعداً على امتزاج العرب المسلمين الفاتحين بهذه العناصر المختلفة ، مما أدى إلى اتساع نطاق انتشار الحضارة الإسلامية ، فأصبحت أساس المجتمع الجديد فى الإمبراطورية الإسلامية .

سادت فى العالم الإسلامى حضارة تخالف الحضارات السابقة في الأراضى الفارسية والرومانية . حضارة تختلف هى والحضارة العربية التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية زمن الفتوح ، فقد سادت حضارة إسلامية ، تستمد روحها ومقوماتها من الإسلام ، وتقتبس من الحضارات العالمية أحسن ما فيها مما يتلاءم هو والإسلام .

وقد استفاد العالم من الحضارة الإسلامية الجديدة أكثر مما استفاده من الحضارتين : الإغريقية ، والرومانية . فالحضارة الإغريقية توجه معظم اهتماماتها إلى الفكر والفلسفة ، ولا تهتم كثيراً بحاجات المجتمع ،

وحياة الفرد اليومية ، فى حين تهتم حضارة الإسلام بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر ، وتوفر السعادة فى الدنيا والآخرة . كما أن الحضارة الرومانية تهتم كثيراً بالمبانى الضخمة الفخمة ، وخاصة الملاعب الرياضية ، لإثبات عظمة الرومان ليحتفظوا بسيادتهم السياسية ، كما تعصب الرومان لعنصرهم واحتقروا باقى الأجناس ، واحتقروا من ثم حضاراتهم .

وبذلك اختلف الفتح العربى تماماً والفتوح الرومانية والمغولية التى لم تهتم بإنشاء حضارات راقية ثابتة دائمة . بل إن المغول خرَّبوا ودمَّروا كل الحضارات القائمة . فى حين كان الفتح العربى يحمل رسالة حضارية تدعو إلى الرخاء والسلام فى الأسرة البشرية .

وبعد الفتوح الإسلامية بدأ امتزاج العرب الفاتحين بالعناصر الأخرى فى الأقطار المفتوحة ، وفى ذلك يقول المستشرق المنصف (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) : منح الإسلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن الأقطار المفتوحة ما تحتاج إليه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحمِّية ما استعدوا بها للتضحية بأنفسهم فى سبيله . وقد منحت الحضارة الإسلامية ، ومثلها العليا ، هؤلاء الأهالى مشاعر مشتركة وآمالاً واحدة وإيماناً متيناً يندفع به كل واحد من أبنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل النصر ، وكانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الفريدة التى قامت باسم الدين ، والتى اشتقت من دينها جميع

نظمها الحضارية ، السياسية والاجتماعية .

وأدى الإسلام إلى تقارب عناصر السكان المختلفة ، ثم اندماجهم فى مجتمع واحد ، وفى حضارة موحدة ، بدلاً من تلك الحضارات القديمة ، القبلية أو الطبقية أو العنصرية .

وجدت المجتمعات الأجنبية فى الحضارة الإسلامية أساساً لحل مسائل الحياة ، فالإسلام لا يقتصر على سن القواعد فى النظام المدنى ، بل يدعمها بالحث على مكارم الأخلاق وإصلاح الأفكار وتطهير النفوس ، ليكون ذلك منها رقيباً على مواصلة العمل بتلك القواعد . كما يتميز الإسلام بالمرونة والواقعية والتطور ، وبالملاءمة مع طباع البشر ، فهو دين الفطرة والتقدم والخلود .

وأبدت هذه المجتمعات إعجاباً بما وجدته فى الحضارة الإسلامية من اتساع الآفاق فى سائر مجالات الحياة ، فالإسلام منبع هذه الحضارة ، يوفق بين الحياة الروحية والحياة المادية ، ويجعل العقل حكماً فى كل أمر ، ويضع القواعد العامة والأصول الجوهرية ، ويترك التفاصيل والجزئيات للمؤمنين يفسرونها ، فى كل زمان ومكان ، بوحى من إيمانهم ، وبروح من بيئتهم وعصرهم . والإسلام يحقق التوازن التام بين مصلحة الفرد ومصالح المجتمع ، فهو يعطى المسلم الحرية الفردية فى دائرة المصلحة العامة للمجتمع .

ويمنع الإسلام كل الحواجز والعقبات ، القانونية والتقليدية ، التى

تمنع الإنسان من بذل جهده ، فى الكسب والإنتاج ، والنشاطين : الاجتماعى ، والاقتصادى ، ويلغى الإسلام الامتيازات والفوارق التى تحقق لبعض الطبقات أو السلالات أو البيوتات منزلة خاصة تخالف القانون السماوى وتتعارض هى ومصالح الأغلبية . والإسلام يعترف بالتباين الفطرى والفوارق الطبيعية ، ولكن يمنع أن يكونا من عوامل الصراع الاجتماعى ، بل يجعلهما فى خدمة المجتمع الموحّد .

وقد أصبح نظام الزكاة الإسلامى ، خير مميز للمجتمع الجديد ، فهو نظام إلهى فريد لم يعرفه العالم من قبل . فهو تأمين اجتماعى يحقق للمسلم ضروريات الحياة ، ويعطيه قوة دفع تمكنه من المساهمة فى تقدم المجتمع . ونهضته كما تحقق الزكاة التكافل والتضامن الاجتماعيين ، وتصور النزعة الإنسانية العميقة الواسعة فى الإسلام .

أصبحت الدولة الإسلامية بعد الفتوح العربية ، إمبراطورية واسعة ، تضم أراضى واسعة ، تمتد من الصين شرقاً إلى غربى تونس ومن جبـــال طوروس شمالاً إلى النوبة جنوباً . وتسكن هـــذه الإمبراطورية ، عناصر جنسية كثيرة ، وبها حضارات مختلفة ، ولغات كثيرة ، واختلفت هذه الشعوب فى تواريخها القديمة ، وفى حياتها الاجتماعية والسياسية ، وفى نشاطها الاقتصادى ، فى مصالحها واتجاهاتها ، وفى آمالها وآلامها .

وهكذا كانت صورة الدولة الإسلامية بعد انتهاء الفتوح العربية

مباشرة ، صورة تتعدد فيها الألوان والأشكال ، وتتصف بالتنافر والتنوع والتعدد ، فى جميع جوانب الحياة ، وكان لابد من مرحلة انتقال ، لتأخذ كل هذه الأقاليم والشعوب ، لوناً واحداً متميزاً فى الحضارة ، يحقق التقارب ، ثم الامتزاج ، ثم الاندماج ، تحقيقاً للتجانس والتناسق ، ولا يكفى أن تكون هذه الشعوب المتنافرة فى حضاراتها ، فى ولاء دولة واحدة ولها رئيس واحد هو الخليفة ، إذ إن استمرار هذه الصورة الشاذة يؤدى حتماً إلى صراعات قومية واجتماعية وحضارية .

وإذا كان لابّد من وجود محور تلتئم حوله هذه الشعوب التى تضمها الدولة الإسلامية ، ورباط ترتبط به الجماهير والجماعات المختلفة . فماذا يكون هذا المحور أو ذاك الرباط ؟ لقد قام العرب المسلمون بالفتوح . والدولة ساعة الفتح دولة إسلامية ، ودولة عربية فى وقت واحد . دولة عقيدتها الإسلام ، ولغتها العربية . فهل يكون الرباط الذى يربط الجزيرة العربية بالأقاليم المفتوحة هو الإسلام وما ينبع منه من حضارة ، أو اللغة العربية وما ينبع منها من فكر وثقافة ؟ .

خاض علماء القومية فى أسس القومية ، وذهب معظمهم إلى أن وحدة اللغة ، ووحدة التاريخ المشترك ، هما أبرز أسس القومية ، ولكن هناك فروقاً واضحة بين النظريات ، وبين الواقع التاريخى . ولا يمكن تطبيق نظريات علماء القومية على تلك الفترة التاريخية التى ندرسها الآن ، وهى الفترة التى تلت الفتوح العربية الإسلامية مباشرة ، وهى فترة

انتقال وتحول تتصف بالأهمية المصيرية . فقد شهدت تشكل مجتمع جديد مترامى الأطراف . كما لا يمكن تطبيق نظريات علماء القومية ، وهى نظريات حديثة ، على تلك الفترة من تاريخ العصور الوسطى ، فالعصور الحديثة هى عصور القوميات ، فى حين أن العصور الوسطى هى عصور الدين ، كما ذهب إلى ذلك كثير من المفكرين .

ولا يمكن أى مفكر أن يفصل بين الإسلام واللغة العربية فصلاً تاماً كاملاً ، فهناك روابط وثيقة تربط بينهما ، ولا يمكن أبداً إغفالها . فقد اختار المولى عز وجل الجزيرة العربية لتكون المهد الأول لخاتم أديانه السماوية . واختار الخالق العظيم أيضاً خاتم أنبيائه ورسله من بين العرب ، وشاء سبحانه وتعالى أن يكون آخر كتبه السماوية باللغة العربية . وإن كان الإسلام ديناً عالميّا ، فإنه يبدأ بالعرب ، ويصبح العرب بذلك حملة لواء الإسلام إلى سائر الشعوب خارج الجزيرة العربية .

وهكذا أصبح من المحتم أن يمضى الإسلام واللغة العربية على طريق واحد ، فالفاتحون عرب ، والعاصمة فى المدينة المنورة بالجزيرة العربية ، والخليفة رئيس الدولة عربى . ولذا أصبح الإسلام واللغة العربية رباطين حتميين وطبيعيين ، لربط مختلف العناصر والحضارات والثقافات والقوميات ، تمهيداً لمرحلتى الامتزاج والاندماج .

وإن تلازم الإسلام واللغة العربية ، فقد اختلفا فى سرعة الانتشار ، فسبقت اللغة العربية الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ،

وسبق الإسـلام اللغة العربيـة فى العصر العباسى ، ولكن هذا السبق لم يؤد إلى مسـافة طويلة تفصـل بينهما ، كما لم يؤد قط إلى أى تبـاعد بينهمـا .

وكذلك كان من اليسير على الأجنبى الذى يعيش فى الأراضى المفتوحة أن يتعلم اللغة العربية ، وتعلمها لا ينسخ لغته القومية المحلية ، فمن الممكن للفرد أن يتعلم عدة لغات فى وقت واحد . وتعلّم لغة جديدة لا يغير من حياة الإنسان الاجتماعية أو لونه الحضارى أو من أفكاره واتجاهاته . أما اعتناق دين جديد فمعناه ترك الدين القديم ، فلا تعدد فى الأديان ، والدين ليس عبادات فحسب ، بل هو معاملات ، واتجاهات حضارية وفكرية ، ونظم سياسية واجتماعية . والإسلام حضارة عامة شاملة ، ولذا على المسلم الجديد اتباع روح الإسلام وأحكامه وتعاليمه فى حياته اليومية والاجتماعية . ومن ثم أصبح اعتناق الإسلام انتقالا بالفرد إلى حضارة جديدة ، ذات آفاق أرحب .

وفى أول الأمر ، كان تعلّم اللغة العربية يسبق انتشار الإسلام ، وكل من يعتنق الإسلام عليه أن يتعلم العربية ، لأداء الصلاة ، ولقراءة القرآن الكريم للوقوف على أركان الإسلام وأحكامه . فى حين أنه ليس من الضرورى لمن أراد تعلّم العربية اعتناق الإسلام . كما أقبلت بعض الشعوب على تعلم العربية للاحتفاظ بوظائفها الحكومية ، أو للتفاهم مع السلطات العربية الحاكمة ، أو لتيسير نشاطهم الاقتصادى .

وخلاصة القول : كان الجيل المعاصر للفتوح العربية أكثر إقبالا على اللغة العربية فى حين كان الجيل الثانى أكثر إقبالاً على الإسلام . وما حدث فعلاً يخضع فى الحقيقة لسنة الحياة والتطور. وكانت هذه الصورة التاريخية من مصلحة الإسلام ، فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . ونحن دائماً فى حاجة إلى رسوخ الإيمان فى الأعماق ، فى النفس والعقل . وفى حاجة إلى تطبيقات عملية إيجابية لروح الإسلام وحضارته .

لا إكراه فى الدين . وقد عرف العرب هذه الحقيقة وطبقوها عمليّا فى كل الأراضى المفتوحة . ويعترف المستشرقون جميعاً بأن العرب لم يكرهوا أجنبياً على اعتناق الإسلام ، فخضع الإسلام وحضارته للاختيار الفردى والجماعى فى حرية تامة . والإسلام له سموه ومزاياه ، ولذا طرح الفاتحون العرب تعاليم الإسلام السامية وحضارته الناهضة تحت أنظار الشعوب ، ثم تركوا لهم حرية الاعتناق والتحضّر .

ووجّه الفاتحون العرب – خليفة وحكومة – اهتمامهم إلى التعريب ، بحيث يضفون اللون العربى على الأقاليم المفتوحة ، المختلفة فى حضاراتها ولغاتها وقومياتها . واللغة العربية هى أساس التعريب . واللغة العربية ليست حروفاً أبجدية فحسب ، بل هى ثقافة ، ووحدة اللغة تؤدى إلى وحدة الثقافة ، وهذه تؤدى إلى وحدة العقلية والنفسية ، مما يوحد الشخصية العربية الواحدة ، واللغة العربية أيضاً يمهد انتشارها إلى انتشار

الإسلام وحضارته ، فهى تتيح لمن يتعلمها قراءة القرآن الكريم وتفهم الأحاديث النبوية الشريفة ، فيقف على سمو الإسلام ، ويتحضر بحضارته .

كان من الضرورى ترك حاميات عسكرية عربية فى الأراضى المفتوحة حماية لشعوبها من محاولات الفرس والرومان لاستعادة نفوذهم . فقد حاول الرومان – مثلاً – استرداد مدينة الإسكندرية مرتين ، إلى جانب مواجهة مؤامرات وانتفاضات مراكز القوى القديمة من أنصار السلطات الفارسية والرومانية .

واهتم عمر بن الخطاب ، الخليفة الراشد العبقرى ، برسم أبعاد حياة هؤلاء الجنود العرب فى الأراضى الجديدة . وخشى عمر أن تذوب هذه الأقلية العربية التى فى هذه الأقاليم ، وسط الأغلبية الأجنبية ، بعد جيل أو جيلين ، إذ حدث امتزاج حضارى واجتماعى فجأة . ورأى عمر أن تحافظ هذه الحاميات على عروبتها ، وعلى لونها الحضارى ، وعلى خصائصها الاجتماعية ، بحيث يمكن هذه الحاميات أن تحمل لواء الدعوة إلى الإسلام ، كما تصبح مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية ، وللعروبة . ولذا نهى عمر عن إقامة هؤلاء الجند العرب فى المدن ، وأمرهم بأن يقيموا فى معسكرات ذات طابع عسكرى ، بعيداً عن المجتمعات الأجنبية .

أراد عمر أن تكون هذه الحاميات العربية نقطة الانطلاق إلى

التعريب . وإلى نشر الحضارة الإسلامية ، وإذا فقد العرب عروبتهم أو لونهم الحضارى ، عجزوا عن تعريب هذه الشعوب ، ونقل الحضارة الإسلامية إليها ، وفاقد الشىء لا يعطيه . وكان الانطلاق التام والسريع فى التزاوج بين العرب والأجانب يخرج أجيالاً تتضاءل دماؤها العربية بمرور الزمن .

والعرب يعتزون بلغتهم العربية ، فهى لغة قديمة عريقة . وهى فوق كل شىء لغة القرآن الكريم ، وأدرك عمر بحكمته أن الامتزاج الاجتماعى يؤدى إلى تأثر الأقلية العربية لغويًا بالأغلبية ، مما يؤثر فى اللهجات والنحو ، فينتشر اللحن والخطأ ، وأراد عمر المحافظة على سلامة اللغة العربية من المؤثرات الأجنبية ، فاللغة أساس القومية ، وقد أراد عمر أن يمنح تلك الشعوب الأجنبية المتعددة فى القوميات والحضارات ، قومية واحدة ، وحضارة موحدة .

واتضحت حكمة عمر بعد ذلك ، فقد حاد الخليفة عثمان بن عفان عن سياسة عمر بن الخطاب ، وحدث امتزاج اجتماعى وحضارى واسع النطاق ، فوقع المحظور .وتأثرت اللغة العربية باللغات الأجنبية ، وكثر اللحن ، ولذا أمر الخليفة على بن أبى طالب أبا الأسود الدؤلى بوضع قواعد النحو والصرف ، حفاظاً على جوهر اللغة العربية .

والحضارة الإسلامية لها طابعها المتميز ، وهى تنبع من الإسلام ، فى حين تنتشر فى الأقطار المفتوحة حضارات قديمة ، فارسية ورومانية

وإغريقيـة ومصرية ، تختلف فى منـابعها وألوانهـا واتجاهاتها والحضارة الإسلامية . وخشى عمر بن الخطاب أن تدخل بعض الشوائب الأجنبية على الحضارة الإسلامية ، فالرعايا الأجانب لا يزالون يحتفظون بعقائدهم ومذاهبهم القديمة ، ومنهم من لا يعتنق عقائد سماوية ، مثل المجوس الفرس . وما نعرفه عن تاريخ العصر العباسى يثبت حكمة عمر ، فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ولذا سادت الحضارة الفارسية فى العصر العباسى الأول الذى استغرق مائة سنة (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، واستأثر الفرس بالنفوذ السياسى والإدارى ، ولذا حاولوا فرض حضارتهم الفارسية القديمة المتأثرة بتعاليم المجوسية ، مما أدى إلى دخول شوائب مجوسية فى الحضارة الإسلامية ، مما نسميه فى التاريخ بالزندقة ، فشهد هذا العصر نزعات فوضوية ، فى الأخلاق والتقاليد الاجتماعية ، فضلاً عن الانحلال والفساد ، مما جعل الخلفاء العباسيين يقفون منها موقفاً حازماً ، دفاعاً عن الإسلام وحضارته .

وحياة المدن حافلة بالترف والرفاهية ، وبالفساد الاجتماعى أيضاً . وقد انتصر الجندى العربى بفضل حماسته الدينية ، وحضارته البدوية ، وخصائصه الجسمانية والنفسية والخلقية ، وما هو عليه من شجاعة وإقدام وصبر وتقشف وزهد . وحضارة المدن قد تدعو الجندى العربى إلى الدعة والكسل ، وإلى الإقبال على متع الحياة ، مما يفقد الجندى العربى تلك الخصائص . كما أراد عمر أن يظل الجيش العربى جيشاً نظاميًا ، مستمراً

فى تدريباته العسكرية ، فى تلك المعسكرات ، مستعداً فى كل وقت لمواجهة أعداء الإسلام .

وتحقيقاً لسياسة عمر فى المحافظة على العروبة ، وعلى الطابع الحضارى الإسلامى ، أقام العرب الفاتحون فى معسكرات خاصة ، بعيدة عن المدن القائمة ، محتفظين بطابعهم العسكرى ، ومنعوا الأجانب من الدخول إلى المعسكرات . وعلى هذه الصورة ، قامت معسكرات البصرة والكوفة بالعراق ، والفسطاط فى مصر . وإن كانت هذه المعسكرات الثلاثة قد تحولت فيما بعد إلى مدن عامرة ، بمفاهيم المدن ، إلا أن العرب حينما أقاموها لم يقصدوا أن تكون مدناً ، بل معسكرات لإقامة الحاميات العربية .

وهكذا كانت دوافع عمر حكيمة ، ولكن سنة الحياة والتطور كانت أقوى من سياسة عمر ، وإن كان لهذه السياسة أسبابها ودوافعها ، ولكن من العسير تنفيذها عمليًا بالكامل . فالإنسان مدنى واجتماعى بطبعه ، والحضارة عالمية فى اتجاهاتها . ومن العسير وضع حدود ثابتة تمنع الامتزاج الحضارى ، ولذا كان من المستحيل أن يستمر وجود هذا المجتمع العربى ، فى عزلة تامة وسط المجتمعات الكبيرة الأجنبية ، وطبيعة الحياة تؤدى حتماً إلى امتزاج المجتمعات والحضارات .

واضطرت سُنّة الحياة والتطور الخليفة عمر إلى التغاضى عن بعض جوانب سياسته العربية ، وما لبثت هذه السياسة أن انهارت فى عهد

سلفه الخليفة عثمان بن عفان ، فقد شبّ حريق فى المعسكرات الثلاثة ، فى البصرة والكوفة والفسطاط ، فى أوقات متقاربة ، وطلب الجند من الخليفة عمر بناء مساكنهم بالأحجار ، ورفض عمر ، فبناء المساكن الحجرية يؤدى إلى إقامة المنازل الثابتة ويحتاج إلى تخطيط وتنظيم عمليات البناء ، فيتحول المعسكر البسيط المظهر ، المكون من خيام متقاربة ، إلى مدينة . ولذا أمر عمر بالبناء بالقصب (أى البوص) ، وأتت النيران مرّة أخرى على ذلك القصب ، واضطر عمر إلى الإذن بالبناء بالأحجار .

وكان هذا الإذن هو بداية الامتزاج الحضارى والاجتماعى ، وتحول المعسكرات إلى مدن . فقد احتاج العرب إلى مهندسين لتنظيم البناء ، وتخطيط الشوارع والمرافق العامة . ثم احتاجوا إلى عمّال بناء من الأجانب . فبدأت العناصر الأجنبية تدخل ، لأول مرّة ، إلى هذه المعسكرات العربية . وما لبث الخليفة عثمان بعد توليته أن حاد عن سياسة سلفه عمر ، فتدفق الأجانب على هذه المعسكرات يقيمون الأسواق ، ويبنون الدور ، وأصبحت المعسكرات مدناً كبيرة عامرة . وامتزجت العناصر الأجنبية المختلفة بالحاميات العربية ، وحدث تزاوج بين الفريقين ، وبين الحضارات .

وهكذا كانت الخطوة الأولى نحو الامتزاج الحضارى ، وبعد قرون سيتحول الامتزاج إلى الاندماج . وشمل الامتزاج الدماء واللغات أيضاً .

بعد إستقرار العرب الفاتحين فى الأقاليم المفتوحة ، حدث تزاوج

بينهم وبين المجتمعات الأجنبية ، فكان كثير من الجند قد تركوا زوجاتهم فى الجزيرة العربية ، فأقبلوا على الزواج من نساء الأقاليم الجديدة . وخاصة البدو العرب الذين جذبتهم حضارة النساء الأجنبيات أو جمالهن كما تزوج بعض الجند من الجوارى اللاتى حازوها كغنائم حرب . وظهر جيل ثانٍ يجمع بين الدماء العربية والدماء الأجنبية . وأدى هذا التزاوج أيضاً إلى امتزاج حضارى ، فقد حملت الزوجات والجوارى الأجنبيات إلى البيوت العربية ألواناً حضارية جديدة ، وتأثر الأزواج العرب بحضارات زوجاتهم الفارسيات والرومانيات . ولم يرض الخليفة عمر كثيراً عن هذا التزاوج ، حفاظاً على الدماء العربية ، كما نظر كثير من العرب إلى هذا الجيل الثانى المختلط نظرة أقل احتراماً من نظرتهم إلى العرب الخلّص .

وحدث أيضاً امتزاج قوى بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى . وكانت الحضارات فى عصر الفتوح متقاربة ، فقد تأثرت الحضارة الرومانية بالحضارة الإغريقية ، بعد تغلبها عليها . كما حدث امتزاج بين الحضارتين الرومانية والفارسية نتيجة الحروب المستمرة بين الدولتين ، واجتياح كل دولة منهما أراضى الدولة الأخرى .

وكان لانتشار الأمية بين العرب الفاتحين أثره فى اعتمادهم على الموظفين الأجانب فى دواوين الحكومة ، وفى اقتباسهم كثيراً من النظم الإدارية ، والحكومية ، الفارسية والرومانية ، وامتد الاقتباس إلى جميع

شئون الحياة ، واقتبسوا الحرف والمهن ، وأدوات الحضارة ، وألوان الطعام ، وأشكال الأزياء .

ولا بأس من هذه الاقتباسات ، فالحضارة قبل كل شيء عالمية ، والبشر أسرة إنسانية واحدة ، والاقتباس يؤدى إلى التقارب الحضارى ، ويزيل الفوارق . وكان العرب يقتبسون ما يتفق مع روح الإسلام وتعاليمه ، ومع ما يتلاءم هو وأخلاقهم وعاداتهم وعقليتهم ، ثم يضفون على ما اقتبسوه روحهم الإسلامية .

وكان لقيام إمارة الحيرة العربية على أطراف العراق ، وإمارة الغساسنة على أطراف الشام ، قبل الإسلام أثره فى التقريب بين الحضارة العربية والحضارتين الفارسية والرومانية . كما اطلعت قريش على الحضارات الأجنبية خلال رحلاتها التجارية إلى أرجاء العالم .

وتحدث المستشرق (ديمومبين) فى كتابه (النظم الإسلامية) عن الامتزاج الاجتماعى والحضارى ، فقال : أدت إقامة العرب فى المدن الإسلامية الجديدة ، إلى امتزاجهم بأهالى البلاد ، وقد تعاونوا جميعاً فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولم تكن عناصر الأقطار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلاً فى سبيل تكون مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية ، واعتنق الإسلام ، وتحضر بالحضارة الإسلامية .

وكان لانتشار الإسلام بين العناصر الأجنبية فى البلاد المفتوحة ، أثره

فى امتزاج العناصر الجنسية والقومية ، وامتزاج الحضارات . فالإسلام حضارة شاملة راقية ، فأصبح للمؤمنين به حضارة واحدة متميزة مستمدة من روح الإسلام وشرائعه . مما أدى إلى وحدة السلوك والتفكير والأخلاق والنفسية . ولاءم المسلمون الجدد بين حضارتهم الأصلية القديمة وبين الحضارة الإسلامية الجديدة ، فاحتفظوا من حضارتهم القومية بما يتفق مع تعاليم الإسلام .

وقامت اللغة العربية أيضاً بدور كبير فى امتزاج الحضارات والقوميات ، فقد أدى انتشارها فى عصر الخلفاء الراشدين ومطلع العصر الأموى ، ثم حين عرّب الأمويون دواوين الحكومة ، إلى وحدة ثقافية وعقلية ونفسية ، وسادت القومية العربية ، وبدأ إندماج العناصر الأجنبية فى الحياة العربية الإسلامية الجديدة . وكان الفرس والرومان يعرفون اللغة العربية عن طريق إمارتى الحيرة والغساسنة العربيتين . وأدت رغبة المسلمين الجدد فى قراءة القرآن الكريم ، وتولى المناصبْ الحكومية ، إلى سعة انتشار اللغة العربية . كما كان التسامح العربى له أثره الكبير فى نشر الإسلام واللغة العربية على حدّ سواء .

ولم تنتشر اللغة العربية ، مثلها فى ذلك مثل الإسلام ، بالقوة أو بحد السيف ، فيذكر المستشرق (بارتولد) فى كتابه (الحضارة الإسلامية) أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ، كما أدّى تسامح العرب إلى انتشار لغتهم . إذ إن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح

كالجرمان والمغول والفرس .

وفى الحقيقة ، اتبع العرب فى نشر دينهم ولغتهم وحضارتهم سياسة التمهل والتعقل ، وراعوا سنن الطبيعة والنشوء ، ولم يحاربوا أديان الأقوام الأخرى أو لغاتهم أو حضاراتهم ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى انتشار الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية .

٤ – الحضارة الإسلامية فى مواجهة الأعداء

الشعوبية :

بدأت جذور تيارات الشعوبية فى أواخر العصر الأموى ، لتظهر واضحة فى العصر العباسى . والحقيقة التاريخية هى أن الدولة الأموية كانت دولة الحضارة العربية ، أكثر منها دولة الحضارة الإسلامية . ونحن لا ننفى اهتمام الخلفاء الأمويين بانتشار الإسلام ، وحمايته من أعدائه ، فضلاً عن اهتمامهم بالفتوح الإسلامية الواسعة النطاق ، والتى ترتب عليها انتشار الإسلام فى أقاليم واسعة شاسعة . وهذه الأمور لا ينكرها أبداً كل مؤرخ ، ولكن – برغم ذلك – كانت السياسة العربية فى الدولة الأموية أكثر وضوحاً ورسوخاً .

اعتز الخلفاء الأمويون بعروبتهم ، وبانتسابهم إلى قريش أعظم القبائل العربية ، واهتم الخلفاء بتعريب الدولة ، فبدءوا بتعريب الدواوين

الحكومية ، فحولوها من اللغات القومية الأجنبية إلى اللغة العربية ، ثم سكّوا عملة عربية . واعتمد الأمويون تماماً على العنصر العربى فى السياسة والإدارة والجيش ، وأهملوا العناصر الأجنبية التى إعتنقت الإسلام .

وظهرت فى العصر الأموى مشكلة (الموالى) ، وهم المسلمون من غير العرب ، فقد حرمهم الأمويون حقوقهم الاجتماعية والمادية ، والوظائف العامة . والموالى هم أهالى البلاد الأصليون الذين آثروا اعتناق الإسلام ، وكانوا على جانب حضارى كبير ، وبذلك خالف الأمويون تعاليم الإسلام التى تنهى عن التفرقة العنصرية .

والحقيقة أن للموالى فضلاً كبيراً على الحضارة الإسلامية ، فقد ساهمت حضاراتهم القديمة العريقة فى تغذية الحضارة الإسلامية وإنعاشها ، واشتغل الموالى بكل العلوم والآداب والفنون ، ونبغ كثير منهم فى النشاط الفكرى .

وأهمل الأمويون تحقيق المساواة بين عناصر السكان فى العالم الإسلامى ، كما أهملوا حفظ التوازن بين العناصر ، والحضارات ، والطبقات ، وأصحاب المصالح المتعارضة ، مما أدى إلى صراعات حضارية وقومية واجتماعية ، كانت من أبرز عوامل سقوط الدولة الأموية .

إقتبس الأمويون كثيراً من جوانب الحضارات الأجنبية ، الفارسية والرومانية والإغريقية ، ولكنهم أنفوا من مساواة الأجانب بالعرب برغم

أن الإسلام يربطهم برباط الأخوة. وتطور الأمر فى فترات الضعف السياسى فى الدولة الأموية، إلى اضطهاد الموالى، ولذا وقفوا موقف المعارضة الشديدة الدائمة من الدولة الأموية، وانضموا إلى كل الأحزاب والحركات المعارضة للأمويين، مهما كانت آراؤها، ثم انضموا إلى الدعوة العباسية، وكانوا العامل الأول فى نجاحها، وفى إقامة الدولة العباسية، فقد وضع العباسيون برنامجاً سياسيّا واجتماعيّا للإصلاح، أساسه المساواة بين العرب والموالى.

وكان الموالى الفرس أكثر الموالى اعتزازاً بقوميتهم وحضارتهم الفارسية، وأكثرهم سخطاً على الأمويين ومقاومة لهم، وعملوا فى أول الأمر من أجل إقامة خلافة علوية، حتى إذا أخفقت محاولات العلويين، تحول الموالى الفرس إلى الأسرة العباسية.

ووضع العباسيون سياستهم على أساس أن الخليفة يحكم إمبراطورية إسلامية واسعة، كثير من سكانها من عناصر غير عربية، ذات تواريخ وحضارات وقوميات خاصة، مما يوجب تحقيق المساواة. ووضع العباسيون سياسة حفظ التوازن بين العناصر والحضارات تجنباً للصراعات القومية والحضارية. وبرغم أن الخلفاء العباسيين عرب قرشيون، فإنهم اعتزوا بإسلامهم أكثر من اعتزازهم بعروبتهم. فقد واجهوا أعداء الإسلام فى حزم وقوة، ولم يهتموا كثيراً بمواجهة أعداء القومية العربية، فقد واجه الخلفاء العباسيون جميعاً حركات الزندقة التى

حاولت إحياء العقائد والحضارة الفارسية القديمة ، فى عنف وحزم ، على حين وقف الخلفاء العباسيون موقفاً سلبيّا من حركات العصبية الشعوبية الموجهة ضد العروبة ، فهؤلاء الخلفاء لا يريدون إقحام أنفسهم فى ذلك الصراع الشعوبى ، الحضارى والفكرى ، القائم بين العناصر المختلفة .

والشعوبية مشتقة من كلمة (شعب) ، وقد فسرها علماء اللغة بأنها الجيل أو الجماعة من الناس ، والشعوبية - تاريخياً - تعصب كل شعب ، وكل عنصر جنسى لنفسه ، ضد الشعوب والعناصر الأخرى .

وتعددت تيارات الشعوبية ، وأهدافها ، واتجاهاتها ، ويرى بعض المؤرخين أن الشعوبية ضد العرب تهدف أولاً إلى الكيد للإسلام وما نبع منه من حضارة ، فالعرب هم الأمة التى ظهرت فيها العقيدة الإسلامية ، وهم الذين حملوا لواء الحضارة الإسلامية إلى أرجاء العالم الوسيط . وكانت هناك شعوب حانقة على الفتح العربى الذى أفقدها قوميتها وإستقلالها ، وشخصيتها الحضارية ، فاتخذ عداؤها شكلاً شعوبيًّا . كما كان هناك الفرس المجوس الحاقدون على الإسلام الذى أدى إلى تضاؤل العقائد المجوسية ، التى يعتبرونها رمزاً للقومية وللحضارة الفارسية . ولذا وجهوا سهامهم الغادرة إلى العرب ، والعروبة ، والحضارة الإسلامية .

وكان الفرس أكثر العناصر الجنسية ممارسة للشعوبية . فقد كان

بعضهم يحقد على العرب لقضائهم على الدولة والحضارة الفارسية ، وإزداد الفرس غروراً حين ساهموا فى إسقاط الدولة الأموية ، وهى دولة عربية ، وفى إقامة الدولة العباسية التى اعتمدت فى مائة السنة الأولى من عهدها على الفرس فى السياسة والإدارة والحضارة ، وغذّى هذا الغرور الفارسى روح الاستيلاء والكبرياء والشعوبية .

واختلفت اتجاهات الشعوبيين الفرس ، فرأى بعضهم إقامة دولة فارسية جديدة فى ثوب إسلامى ، تكون بعثاً للدولة الفارسية القديمة وحضارتها العريقة . وقد حاول الفرس السيطرة الكاملة على الدولة العباسية ، حتى تكون هى الدولة الفارسية الإسلامية المنشودة ، وأخفقت المحاولات ، نتيجة مواجهة الخلفاء العباسيين لهذه المحاولات حرصاً منهم على سياسة حفظ التوازن بين العناصر المختلفة . ولذا اتجه بعض الفرس إلى إسقاط الخلافة العباسية ، وإلى إقامة خلافة علوية ، قد تكون أسلس قياداً فتتحقق آمال الفرس فى النفوذ الكامل .

ورأى بعض الفرس المجوس إقامة دولة جديدة تمتزج فيها تعاليم الإسلام وحضارته ، وتعاليم المجوسية وأفكارها . ولما كان العرب فى رأيهم هم حفظة الإسلام وحملة لواء الحضارة الإسلامية فلذا كان عليهم هدم الأمة العربية ، فينهار الأساس العربى الذى قام الإسلام عليه .

وتكاتف الفرس ، باختلاف إتجاهاتهم وأهدافهم ، على توجيه

شعوبيتهم ، إلى العرب ، وظهرت كتب (مثالب العرب) تبرز نقائص العرب ، ولم يجد الفرس مجالاً غير عرض أحوال العرب فى الجاهلية ، وما كانوا عليه من وثنية وحضارة بدوية ، كما أبرزوا صور مقاومة العرب للإسلام وسوء معاملتهم للرسول ، ليثبتوا أن العرب غير جديرين بالرسالة السماوية التى نزلت فى بلادهم . كما ظهرت كتب (مناقب العجم) توضح محامد الفرس ، وعراقة حضارتهم ، وأمجاد تاريخهم السالف ، وتبرز تفوقهم الحضارى على العرب .

وكانت شعوبية الفرس خطراً على الدين والتاريخ ، فقد زيفوا كثيراً من الأحاديث النبوية التى توصى العرب بالعجم ، وتبرز فضائل الفرس وجهودهم وزيفوا أيضاً بعض حقائق التاريخ للإساءة إلى العرب ، واستفادوا كثيراً من شخصية الصحابى الجليل سلمان الفارسى ، ووضعوه فوق سائر الصحابة ، وأبرزوا فكرة الخندق التى اقترحها ، وكيف أنقذت الإسلام والمسلمين من مصير مظلم . وانبرى الشعراء الشعوبيون إلى هجاء العرب ، وامتداح الفرس ولجأ الشعوبيون إلى (التأويل) ، فأوّلوا الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والحقائق التاريخية ، لتتفق مع أهدافهم الشعوبية .

وكان العرب مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم ، فخاضوا أيضاً ميادين الشعوبية . فكانت هناك أيضاً كتب (مناقب العرب) ، وفيها يبرز العرب تاريخهم ، ويعتزون على سائر الشعوب بأن الله عز وجل اختار

خاتم رسله من بين العرب ، واختار اللغة العربية لتكون لغة آخر كتبه السماوية . كما أن العرب هم المسلمون الأوائل ، وهم حملة لواء الإسلام إلى سائر الشعوب . ويفخر العرب بأنهم هم الذين أخرجوا الأمة الفارسية من ظلمات المجوسية إلى أنوار الحضارة الإسلامية .

ويبدو أن الخليفة العباسى الثامن المعتصم قد ضاق بهذا الصراع الشعوبى بين العرب والفرس ، فرأى التحول عن سياسة أسلافه فى الاعتماد الكامل على الفرس فى الحكم ، ولم يكن ممكناً الاعتماد على العرب ، فالعباسيون يعتقدون أن ولاء العرب موجه نحو أعدائهم الأمويين ، ولذا بدأ المعتصم سياسة الاعتماد على الأتراك . وهنا هدأت ثورة الشعوبية بين العرب والفرس ، وقد رأى الفريقان التهادن والاتحاد لمواجهة المنافس الجديد ، أى العنصر التركى . وبدأت مرحلة جديدة من الشعوبية ؛ يواجه العرب والفرس معاً الأتراك الذين استبدوا بالسلطة فى الدولة العباسية ، فبدأ عهد نفوذ الأتراك .

وفى الحقيقة ، لم تستفد الحضارة الإسلامية من هؤلاء الأتراك ، فليس لهم حضارة قديمة ذات شأن بحيث يغذّون بها الحضارة الإسلامية . بل إتصف الأتراك بالجلافة وغلظة الطباع وبداوة الحضارة . فى حين إستفادت الحضارة الإسلامية الكثير من الفرس الذين كان لهم حضارة عريقة قديمة ، قدموا جوانب كثيرة منها للحضارة الإسلامية .

ولم يتدخل الخلفاء العباسيون فى وقف هذه التيارات الشعوبية التى

تفتت وحدة المجتمع الإسلامى ، وربما ظن بعضهم أنهم يستفيدون من هذه الصراعات لدعم سلطتهم ، فقد حاول كل شعب الفوز بتأييد الخليفة . ولكن هذه الشعوبية لا شك فى أنها عرقلت الامتزاج بين الشعوب والحضارات والثقافات ، وأدت الشعوبية الفارسية إلى وقف حركة التقريب ، فاحتفظ الفرس بحضارتهم ولغتهم ، ولا يزالون كذلك حتى اليوم .

الزندقة :

وإذا كانت تيارات الشعوبية لها خطورتها على الإسلام والعروبة والحضارة الإسلامية ، فقد كانت الزندقة أكثر خطورة ، وأعظم أثراً . وكانت الزندقة موجهة إلى الإسلام وحضارته أكثر منها موجهة ضد العروبة . ولذا واجهها جميع الخلفاء العباسيين فى عنف وبأس ، وكافحوها بكل الوسائل ، العسكرية ، والسلمية ، والفكرية .

إختلف المؤرخون فى تعريف (الزندقة) اختلافاً كبيرا ، مع اتفاقهم التام على خطورتها على الإسلام . فبعض المؤرخين ينظرون إلى الزنادقة على أنهم الشعوبيون الفرس ، أو المجوس الفرس . ورأوا أن الزندقة هى محاولة إحياء العقائد المجوسية ، وبعث الحضارة الفارسية القديمة . ورأى بعضهم أنها دعوة إلى حرية اجتماعية تنطلق إلى أبعد مدى ، وراء ستار الحضارة والتطور ، لتصل إلى حد الفوضى الاجتماعية ، ويرى فريق ثالث

أنها حركة مزج أو ملاءمة بين الحضارة الإسلامية وتعاليم المجوسية.

ونحن ندرك خطورة الزندقة إذا علمنا أنها تعدّت نطاق الفرس لتمتد إلى العرب، بل إلى بعض وزراء العباسيين، بل إلى بعض بنى هاشم. ويزداد إدراكنا لخطورة الزندقة إذا علمنا جوهر تعاليم فرقتى المانوية والمزدكية المجوسيتين، وهى التعاليم التى عادت إلى الظهور فى العصر العباسى واختفت وراء اسم (الزندقة)، وانتشرت أفكارها فى المجتمعات العباسية.

والمانوية نسبة إلى (مانى) أحد الفلاسفة الفرس، ويعتبره أتباعه نبيًّا، وخلاصة أفكاره، هى إعتقاده بأن وجود الإنسان على هذه الأرض جناية عليه، ومادام الفناء هو نهاية العالم والحياة، فعلى الإنسان أن يتعجل الفناء تجنباً للشقاء. ولذا فهو ينهى أتباعه عن الزواج والإنجاب، ويدعوهم إلى الرهبنة وعدم العمل والإنتاج، فأفكاره تشاؤمية تهدم المجتمع.

أما (المزدكية) فنسبة إلى (مزدك) وهو أيضاً فى نظر أتباعه نبى. وجوهر تعاليمه أن المال والنساء هما أصل الصراع بين البشر، نتيجة سوء التوزيع وإختلاف نصيب كل فرد، ولذا فهو يجعلهما مشاعاً بين البشر، وبذلك يهدم مزدك الأسرة والأخلاق، والقيم الروحية والاجتماعية.

وقد حارب أكاسرة الفرس مذهبى مانى ومزدك، وانتهت حياتهما بالقتل، وتتبع الأكاسرة أنصارهما بالتنكيل. وعادت تعاليم المانوية

والمزدكية إلى الظهور فى العصر العباسى الأول ، واعتنقها ألوف من الناس ، والأغلبية من الفرس ، والأقلية من العرب . فأصبح من واجب الخلفاء العباسيين مواجهة هؤلاء الزنادقة ، دفاعاً عن الإسلام والحضارة الإسلامية . فهى دولة إسلامية تقوم على شرائع الإسلام ، وكل محاولة لهدم الإسلام هدم لأسس الدولة وكيانها . أيضاً ولذا نظر الخلفاء العباسيون إلى الزنادقة على أنهم أعداء سياسيون للدولة ، إلى جانب كونهم أعداء للإسلام وحضارته .

واتخذت الزندقة صوراً إيجابية وسلبية ، أما الصور الإيجابية ، فهى قيام حركات زندقة ثورية مسلحة ، أصبحت حلقات فى سلسلة طويلة ، شهدتها عهود الخلفاء العباسيين الأوائل ، حتى عهد الخليفة العباسى الثامن المعتصم . وقامت هذه الحركات المسلحة فى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية . وبعث الخلفاء جيوشاً ضخمة ، نجحت بعد جهود طويلة مريرة ، فى القضاء عليها .

أما الصور السلبية ، فكانت أخطر من الثورات المسلحة . فقد اندس الزنادقة بين عناصر المجتمعات ، فى كثير من المدن ، ينفثون سمومهم الإلحادية والإباحية الفوضوية دون الإفصاح عن حقيقتهم ، وهى دعوة فردية من الصعب على الحكومة تتبعها . وأنشأ العباسيون (ديوان الزندقة) ، وهو جهاز كبير ، يضم فريقين من الشرطة ورجال المخابرات لتتبع الزنادقة فى كل مكان ، والقبض عليهم ، ثم عقد محاكمات علنية

تحضرها الجماهير ، ثم عقابهم بعد الإدانة أشد العقاب العلنى . كما يضم هذا الجهاز أيضاً عدداً من العلماء والفقهاء ، مهمتهم عقد مجالس علمية لمناقشة الزنادقة فى تعاليمهم ودحض آرائهم الباطلة ، وتأليف كتب للرد على ضلالات الزنادقة ، ونجح الخلفاء العباسيون بعد جهود طويلة شاقة فى القضاء على روح الزندقة .

الخطر المغولى :

المغول فى الأصل قبائل رعوية بدوية ، موطنها الأصلى وسط آسيا ، وحضارتها بدائية فطرية ، وعقائدها وثنية ، وكثيراً ما ينقطع المطر سنوات متصلة عن أرضهم فتنعدم المراعى ، ويتجه المغول إلى الغزو ، والسلب والنهب ، فكانوا يغيرون على المدن المجاورة لهم ، يرتكبون أعمال العنف والإرهاب . ولم يكن غزوهم من أجل نشر عقيدة أو فكرة أو حضارة ، إنما هدفهم التخريب والتدمير ، فقد رسخت فى أذهانهم فكرة خبيثة ، وهى أن يحيلوا المدن العامرة والأراضى الخصبة إلى الصورة الرعوية البدائية التى يشهدونها فى بيئتهم وفى أوطانهم الأولى فى وسط آسيا .

وكان هؤلاء المغول قبائل وثنية متفرقة متنابذة ، وظلوا على هذه الصورة المتفرقة ، إلى أن نجح (جنكيزخان) فى توحيد صفوف المغول ، وكون منهم دولة ذات طابع عسكرى عدوانى ، واتجه جنكيزخان نحو الشرق لغزو الصين فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم نقل المغول

نشاطهم العسكرى إلى غربى آسيا ، ثم شرقى أوربا ومنطقة الشرق العربى ، واتخذ غزوهم دائماً الطابع الحربى البدوى .

وضع جنكيزخان دستوراً للمغول سماه (اليساق) أو (الياسا) ، يتعارض فى مبادئه وكل الأديان السماوية ، والقيم الاجتماعية والخلقية . مما جعل المغول ليس خطراً على الحضارة الإسلامية فحسب ، بل على كل العقائد والحضارات فى العالم . فجاء فى هذا الدستور (فليعاون كل واحد منا الآخر ولنقض على سائر الأجناس) ، وهى دعوة عنصرية ، تجعل المغول فوق كل الأجناس ، فالمغول لا يطمعون فى السيطرة على العالم كله فحسب ، بل أرادوا إبادة سائر الأجناس ، والقضاء على حضاراتهم . ويسمح دستور المغول بالإباحية والفوضى الاجتماعية والخلقية ، ويحطم الأسرة ، ويلغى شخصية الفرد تماماً. ويتدخل الدستور فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية الصغيرة ، وفى حياة الأفراد الخاصة .

قامت دولة المغول على أسس عسكرية عدوانية ، ولم تقم كغيرها من الدول على أسس حضارية . وبث السلاطين والقادة فى جنودهم روح الحقد وكراهية غيرهم . وشجعوهم على العنف والقسوة والانتقام ، وسمحوا لهم بالتدمير والتخريب والقتل والتعذيب . واعتمدت قوة الدولة على قوة الجيش ، حتى إذا ضعف الجيش انهارت الدولة . وأدت بداوة المغول إلى عنفهم وغلظتهم . وفى الحقيقة ، حاز المغول – فى أول الأمر –

انتصارات واسعة ، إذ اكتسحوا العالم الإسلامى ، من وسط آسيا إلى جنوبى الشام . وكان العامل الأول فى هذه الانتصارات هو سياسة العنف والإرهاب ، التى أفزعت سكان المدن الإسلامية فسارعوا إلى التسليم . ومن عوامل الانتصار أيضاً اهتمام المغول بوسائل الدعاية والإعلام ، فكانوا حين يعزمون على مواجهة مدينة إسلامية يرسلون إليها بعض المغول الذين يندسون بين أهلها ، يشيعون قوة المغول . ويزعمون أنهم (القوة التى لا تقهر) فتكون هذه الحرب النفسية من عوامل انهيار مقاومة تلك المدينة . كما كان المغول يشترون ذمم بعض الحاكمين والقادة بالأموال الكثيرة ، وبالوعود الكاذبة ، فيفتحون أبواب مدنهم أمام الجيش المغولى .

ونجح المغول فى منتصف القرن ١٣ م فى القضاء على الدولة الخوارزمية الإسلامية ، والسيطرة على إيران ، ثم تطلعوا للقضاء على الدولة العباسية ، وكانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف نتيجة سيطرة العناصر الأجنبية على الدولة . ولاشك أن مظاهر الانقسام فى العالم الإسلامى كانت هى العامل الأول لتشجيع المغول على غزو هذا العالم .فلو وحّد العباسيون فى العراق ، والأيوبيون والمماليك فى الشام ومصر جهودهم لنجحوا فى صد الزحف المغولى عند أول ابتدائه . ولكن لم تهتم العناصر الأجنبية المسيطرة على الحكم والسياسة فى الدولة العباسية بإعداد القوى الحربية الكفيلة بصد المغول . وكانت الدولة العباسية قد ضعفت

نتيجة صراع القوميات والحضارات العربية والفارسية والتركية .

وسقطت الدولة العباسية ، حين استولى المغول على العاصمة بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ويصور المؤرخون سقوط هذه العاصمة الإسلامية تصويراً يبعث على الأسى والألم ، ويؤكدون أنه ليست فى التاريخ حادثة أفظع وأسوأ من سقوط بغداد ، فقد خدع المغول الخليفة العباسى فطلبوا منه الخروج إلى خارج بغداد مع أهلها ، لإجراء إحصاء ، وهناك قتلوهم جميعاً ، فى أشنع فرصة . وأحرق المغول المساجد والكنائس . وقتلوا العلماء والفقهاء ، وأباح هولاكو بغداد لجنده ، يقتلون ويسلبون ، وانتهى الأمر بإحراق بغداد كلها . وألقى المغول بالكتب فى نهر دجلة ليكونوا منها جسرين لعبور خيولهم ، فضاع التراث الحضارى للآباء والأجداد . ولا شك أن هذا الحدث كان ضربة عنيفة للحضارة الإسلامية والفكر العربى . وقد حفظت مصر التراث الحضارى والفكرى للعرب وللمسلمين ، إذ نجت مصر من الغزو المغولى ، فكان ما فيها من كتب هو الذخيرة الفكرية والحضارية للأجيال الآتية .

بدأ اجتياح المغول لمدن الشام سنة ١٢٥٩ م ، ودمر المغول التراث الحضارى العربى والإسلامى ، ووصلوا إلى قرب مدينة غزة فى فلسطين ، وتولت مصر مهمة إنقاذ الحضارة الإسلامية ، بل إنقاذ الحضارة العالمية ، فقد كان المغول يعزمون على المضى فى زحفهم فى شمالى إفريقية ثم القارة الأوربية . ونجح الجيش المصرى فى إلحاق هزيمة

ساحقة فاصلة بالمغول فى (عين جالوت) فى ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وبدأ انحسار الخطر المغولى عن بلاد الشام . ومالبث فريق من المغول أن اعتنق الإسلام ، وتحضروا بالحضارة الإسلامية ، وقامت عدة دول للمغول على أسس حضارية إسلامية .

الخطر الصليبى :

بدأت الحملات الصليبية فى العصر الفاطمى سنة٤٩٨هـ (١٠٩٦م) وانتهت فى عهد المماليك سنة٦٩٢هـ (١٢٩٢م) ، وهى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق العربى ، وهى الصورة الأولى من الصور الاستعمارية التى شهدتها القرون التالية . وهى أيضاً صدام بين الشرق والغرب ، وصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأوربية .

ظهرت أبحاث تاريخية جديدة فى أوربا ، تدرس الأسباب الحقيقية للحملات الصليبية على الشرق العربى ، صححت كثيرا من الآراء القديمة الخاطئة . فقد كانت هذه الآراء تمثل روح التعصب الدينى السائدة فى العصور الوسطى . وكتب المؤرخون الغربيون تاريخ هذه العصور بأقلام متعصبة .

ليس هنا مجال لذكر أسباب الحملات الصليبية على الشرق العربى ، وكانت هناك عوامل كثيرة : سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، ولكنها استترت كلها وراء ستار الدين ، وإن لم يكن الدافع الحقيقى . وهذه

الحملات الصليبية هى الصورة القديمة للأطماع الأوروبية التى شهدناها فى التاريخ الحديث من أجل كسب مناطق النفوذ . وقد اختفى المستعمرون فى التاريخ الحديث خلف ألفاظ (الانتداب) أو (الوصاية) ، واختفى الصليبيون وراء ستار (الدين) ، وصوروا هذه الحروب الاستعمارية على أنها حرب بين الإسلام والمسيحية ، والدين برىء منهم ومن أطماعهم وعدوانهم .

وقد اعترف معظم المؤرخين الأوربيين المحدثين بحقيقة دوافع الحملات الصليبية ، وفى مقدمتهم المستشرق (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) ، الذى قال : «نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفس حمية ، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله ، فقد كان العبيد يطمعون فى فك رقابهم ، وغدا أبناء الأسر الذين حرموا الميراث يطمعون فى رغد العيش ، وأصاب القوم نوبة حادة من الجنون ، فرغب الملوك والأمراء والعبيد والرهبان والنساء وجميع الناس ، فى الزحف ، وكأن أوربا تنقض على آسيا . . .» .

وأصبحت الحملات الصليبية المجنونة تهدد الحضارة الإسلامية ، فقد أعمل الصليبيون التخريب والتدمير فى مدن الشام ، وأحرقوا المساجد والمكتبات وخاصة دار الحكمة فى طرابلس ، وكان فيها نحو مائة ألف كتاب . ولم يكن لهذه الحملات الصليبية أهداف حضارية ، أو أبعاد ثابتة ودائمة ، بل كانت نتيجة حماسة سريعة مؤقتة ، وتعصب دينى ،

وأطماع سياسية واقتصادية . والحروب إنما تقوم من أجل التحرير ، أو نشر حضارة ، أو الرقى بالشعوب . أما الصليبيون فلم يكن لهم هدف إلا التخريب والتدمير وسفك الدماء ، باعتراف المؤرخين الأوربيين أنفسهم . ونذكر هنا – على سبيل المثال – رأى المؤرخ (ستانلى لينبول) حيث يقول : تحول الصليبيون عن أغراضهم الأولى التى قدموا إلى الشرق من أجلها ، فانشغلت قواتهم بالسلب والنهب وإيذاء المسلمين المسالمين .

لم يستفد الشرق العربى شيئاً من قدوم الصليبيين ، بل لحق به الخراب والدمار ، وخالف الصليبيون كل ما تأمر به المسيحية من شفقة وإحسان ورحمة . ولكن إقامة الصليبيين الطويلة ، وهى نحو قرنين ، فى الشرق العربى ، جعلتهم يتأثرون بالحضارة والأخلاق الإسلامية ، مما خفف قليلا من وحشيتهم وقسوتهم . وأقبل بعض الصليبيين على اعتناق الإسلام ، وتحدث عنهم بالتفصيل المستشرق (توماس أرنولد) فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام) فى فصل بعنوان (حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين) ، وقد بلغ عددهم فى مصر فقط خمسة وعشرين ألفا .

أثرت الحروب الصليبية فى تاريخ أوربا وحضارتها فقد ضعف النظام الاقتصادى الذى كان أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية الأوربية . وتطورت النظم الاقتصادية ، وازدادت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، ونشطت المصارف ، وتحسنت طرق المواصلات البرية والبحرية . وكانت الحروب الصليبية ، صداماً عسكريّا ، والتقاءً

حضاريًا . بين العالم الإسلامى والعالم الأوربى المسيحى . وانتقلت الحضارة الإسلامية إلى كثير من أرجاء أوربا .

تعلم الأوربيون من المسلمين طرق الزراعة ، ووسائل التجارة ، وأساليب الصناعة ، فضلاً عن تأثرهم بمعارف الشرق وأخلاقه وفى ذلك يقول المؤرخ (هرنشو) :خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من الجند الصليبيين عندما رأوا المسلمين ، الذين ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لاتصح معه المقارنة بينهما .

لم يستفد المسلمون شيئاً ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، إذ نهلوا من منابع الحضارة الإسلامية التى لا تنضب . فقال (جوستاف لوبون) فى كتابه الرائع (حضارة العرب) : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب . وأما الغرب فكان غارقاً فى بحر الهمجية ، ولم يكن عند أولئك البرابرة مايفيد الشرق ولم ينتفع الشرق منهم بشىء فى الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مرّ الأجيال .

قبل الحروب الصليبية ، كانت الاتصالات بين الشرق والغرب محدودة ، تقتصر على قدوم الحجاج أوالتجار المسيحيين إلى فلسطين والشام . وأدّت الحروب إلى لقاء حضارى وازدياد معلومات أوربا عن

الشرق الإسلامى ، وأدركوا أن الأمة الإسلامية قد قطعت شوطاً بعيدًا فى ميادين الحضارة ، ورأوا أمة إسلامية قد تحررت من سيطرة رجال الدين ، على عكس الحال فى أوربا . واقتبس الصليبيون الكثير من الحضارة الإسلامية ، وخاصة فى التشكيلات والنظم الحكومية ، وفى نظم الضرائب والاقتصاد ، وفى إنشاء المدارس والجامعات .

وكانت هذه الاقتباسات من الحضارة الإسلامية هى الخطوة الأولى لعصر النهضة فى أوربا ، فقال (لوبون) : إن تأثير الشرق فى حضارة الغرب كان عظيماً جدًّا نتيجة للحروب الصليبية ، وكان هذا التأثير فى الفنون والصناعات والتجارة واضحًا . وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيمة باطّراد بين الغرب والشرق وإلى مانشأ عن احتكاك الصليبين والشرقيين من النمو فى الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش ، وأعدوا النفوس إلى التقدم ، بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوربا تعول عليها ، فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم .

٥ - الحضارة الإسلامية فى العالم المعاصر

العالم الإسلامى جزء من العالم الكبير ، ونحن - المسلمين - نذكر بفخار أننا حملنا لواء دعوة سماوية خالدة ، لها رسالة عالمية إنسانية ، تؤمن بالخالق العظيم رب العالمين ، وبأن الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة والحسنة ، وبأن البشر سواسية ، لا يتفاوتون إلا بالمواطنة الصالحة وبما هم عليه من تقوى وفضل وصلاح .

والروح الإسلامية العالمية الإنسانية ، تدعو فى نفس الوقت إلى حب الوطن ، فهو من الإيمان ، وكما أن الشعور بالوطنية لاينقص من الشعور بحب الأسرة ، كذلك الروح العالمية لا تحرم مسلماً الشعور الوطنى أو القومى .

والرسالة الإسلامية العالمية ، تنمو مع نضال المسلمين وكفاحهم ، وتتبلور مع تجاربهم الدائمة المستمرة ، وهى تستهدف إرساء جميع العلاقات الإنسانية على أسس الحق القومى والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة . وهى فى جوهرها تعبير عن إيجابية الحضارة الإسلامية وبُعدها عن التعصب والانعزالية ، وتعبير عن حيوية أمة الإسلام ، لأن هذه الرسالة تقوم على الأخذ والعطاء فى ميادين الحضارة ، وتتأثر بالتجربة الإنسانية ، وهى تعبير عن معانى وجود الأمة الإسلامية .

ويرى كثير من المفكرين أن الفروق بين الأمم والحضارات فروق عارضة لاتؤدى إلى صدام سياسى وصراع قومى ، بل يجب أن تعيش شعوب الأرض فى حب وتعاون تحت راية السلام العالمى .

وأصبح السلام فى القرن العشرين هدفاً حضارياً ، فقد عانت البشرية من دمار الحربين العالميتين ، وأدرك البشر أن قيام حرب ثالثة كفيل بالقضاء على الحضارة . كما أصبح السلام أيضاً ضرورة قومية ، فالمواطن عضو فى وحدة بشرية هى الأمة ، والأمة عضو فى وحدة بشرية أكبر هى العالم . وأصبح المجتمع البشرى العالمى يأمل دعم السلام العالمى الدائم ، وتحقيق الرخاء العام .

وبين أبناء الأمة الإسلامية اتجاهات عالمية تتخطى حدود العالم الإسلامى إلى الأخوة فى الأسرة البشرية ، فالإسلام ينادى بأن البشر يمثلون أسرة إنسانية كبيرة يجب أن تعيش فى أمن وسلام . ولقد كان الإسلام أول دعوة عالمية لحقوق الإنسان ، وأول نداء عالمى لتحقيق الحرية والإخاء والمساواة ، ولذا واجه المسلمون الأطماع الاستعمارية فى كل أرجاء الأرض ودافعوا عن حقوق الإنسان ، وقاوموا العصبية العنصرية والقومية .

والأمة الإسلامية تمر فى لحظات انتقال تاريخى هام ، فقد تركت وراءها رواسب الحكم العثمانى ومؤثرات العصور الوسطى ، وبدأت عصرًا زاهرًا ، تحاول فيه وصل الماضى التليد بالحاضر المجيد ، وتتطلع إلى

المستقبل السعيد ، مستفيدة من قيمها الإسلامية ونظم الإسلام ، وحضارته التى تدعو إلى التطور والتجديد والتقدم ، وإن الكفاح المشترك الموحد ، ووحدة الأخطار الإلحادية والمادية ، والمصلحة الواحدة فى التكتل ضدّ الأخطار ، تحتم اتحاداً إسلامياً .

ويزعم بعض المستشرقين أن المسلمين يكرهون الأجانب أو غير المسلمين ، وهى مزاعم باطلة . فالمسلمون لا يكرهون الأجانب ، وإنما يأخذون حذرهم من بعض الأجانب نتيجة تجاربهم معهم ، ونتيجة معاناة المسلمين طويلا من الأطماع الاستعمارية الأجنبية ، ونتيجة كيد بعض الأجانب للإسلام وحضارته .

كانت نهضة أوربا نتيجة اقتباس الحضارة الإسلامية ، وخاصة فى بلاد الأندلس ، وخلال الحروب الصليبية . ولكن الفتح العثمانى للعالم الإسلامى أدى إلى نهاية اقتباس الأوربيين من الحضارة الإسلامية ، فقد بدأت فى الدول الإسلامية فترة تأخر حضارى ، ثم بدأ الغزو الحضارى الأوربى للعالم الإسلامى بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر والشام ، ثم بالأطماع الاستعمارية .

وكانت الحضارة الأوربية سلاحاً ذا حدين ، فقد أدت إلى تقدم حضارى فى بعض جوانب حياة المسلمين ، ولكنها حاولت النّيل أحياناً من قيمهم الروحية وتراثهم الاجتماعى .

والعالم الإسلامى لا يزال – برغم انتهاء الاستعمار – يواجه غزوًا

حضاريًّا ، فما موقف المسلمين من هذه الحضارات الأجنبية ؟

يرى بعض أن يساير المسلمون أوربا وأمريكا فى حضاراتهما لتحقيق التقدم فى العلوم والفنون والآداب ، ويبالغ بعض آخر فيرى أن يمتد الاقتباس فيشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

ونسى هؤلاء أن الحضارة الأوربية قامت على أسس الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، وهذه الأسس نفسها تصلح لقيام حضارة جديدة فى العالم الإسلامى فى القرن العشرين أعظم من الحضارات الأوربية والأمريكية .

إننا ندعو المسلمين إلى التمسك بالحضارة الإسلامية ، التى عرف الأجانب لها قدرها فأقبلوا ينهلون منها ، فهى حضارة عريقة قوية زاهرة . وإذا رأينا أننا فى حاجة إلى بعض ألوان الحضارات الأجنبية ، فعلينا أن نقتبس ما يتفق مع ديننا وقيمنا وتقاليدنا وحاجاتنا ، وعلينا أيضاً أن نتبع دائماً مبدأ الحياد الإيجابى بين الحضارات المختلفة .

. . . وبعد . . . فهذه هى رسالة العالم الإسلامى فى بعثه الجديد ، فى القرن العشرين ، ونحن – المسلمين – جماعة من البشر آمنت بربها ، ربّ السموات والأرض ، ورب العالمين ، وآمنت برسالتها العالمية الإنسانية ، وتضع يدها فى أيدى المؤمنين ، حتى نمضى جميعًا صفًّا واحدًا فى الموكب الإنسانى الكبير ، على قدم المساواة ، فى طريق الحرية والإخاء والسلام .

الكتاب القادم :

علم الاجتماع — د. فاروق محمد العادلى

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٦٣٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٥١ – X

ق/٧٧/٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)